

شيخ الإسلام
تقي الدين أحمد بن تيمية

التوبة

(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

حققتها وخرج أحاديثها

عبد الله حجاج

مكتبة التراث الإسلامي

١٤ شارع صفية بعلول - مصر العتيق القاهرة

تليفون ٣٣٨٣٨

حقوق الطبع والنشر محفوظة
للمنشر

مكتبة التراث الإسلامي

القائمة
عبدالله بن محمد بن
عبدالله بن محمد بن

٣٥٥٣٨٣٨ ت

بسم الله الرحمن الرحيم

ان الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغديه ونستغفره ونعوذ
بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل
له ، ومن يضل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

أما بعد : فان أصدق الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى
محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة .

يقول الحق تبارك اسمه وتعالى جده ولا إله غيره ولا رب
سواه :

أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه اذا ذكرنى ، فان ذكرنى
فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وان ذكرنى فى ملا ، ذكرته فى ملا
خير منهم وان تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا وان تقرب الى
ذراعا تقربت اليه باعا وان أتانى يمشى أتيت هرولة (١) .

ويقول النبى المصطفى سيد ولد آدم أجمعين : الله أفرح
بقوبة عبده من رجل نزل منزلا وبه مهلكة ومعه راحلته عليها طعامه

(١) رواه البخارى فى كتاب التوحيد ومسلم فى التوبة .

وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته حتى اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله ، قال أرجع الى مكانى فرجع فنام نومة ثم رفع رأسه فاذا راحلته عنده (١) .

فهذه رسالة فى التوبة لشيخ الاسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحرانى رحمه الله وهو غنى عن التعريف نقدمها الى المكتبة الاسلامية فى وقت نحن أحوج ما نكون فيه الى التوبة الصادقة النصوح ، توبة خالصة لله رب العالمين ..

داعين قومنا وعشيرتنا وأهلنا للإقبال على الله مهما كان عظم الذنب ، ولم لا وهو سبحانه القائل (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم) (٢) . وقد رغبنا رسولنا الأمين صلوات الله وسلامه عليه فى ذلك بقوله : « ان الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » (٣) .

نعوذ بالله أن نذكر به وننساه وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

عبد الله حجاج

(١) رواه البخارى فى كتاب الدعوات ومسلم فى كتاب التوبة .

(٢) آية ٥٣ الزمر .

(٣) رواه مسلم فى كتاب التوبة .

قال الإمام العلامة شيخ الاسلام تقى الدين أبو العباس
أحمد بن عبد الحلیم بن تیمیة رحمه الله :

الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستهديه ، ونستغفره ،
ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، ومن يهد الله
فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادي له • وأشهد أن لا إله إلا الله
وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله (أرسله
بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيدا)^(١)
صلی الله عليه وسلم تسليما •

قال الله تعالى : (أكر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من
لدى حكيم خبير • ألا تعبدوا الا الله إننى لكم نذير وبشير •
وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا الى أجل
مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله وإن تولوا فإنى أخاف عليكم
عذاب يوم كبير)^(٢) •

وقال تعالى : (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم
لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور

(١) آية ٢٨ سورة الفتح •

(٢) سورة هود : ١ — ٣ •

الرحيم • وأنبيوا الى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتاكم العذاب
ثم لا تتصرون • واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم من قبل
أن يأتاكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون (١) •

وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا
عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من
تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم
يسعى بين أيديهم وبأيمانهم) (٢) •

وقال تعالى : (وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم
تفلحون) (٣) •

وقال تعالى : (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار
الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق
منهم ثم تاب عليهم انه بهم رؤوف رحيم • وعلى الثلاثة الذين
خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم
أنفُسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا
ان الله هو التواب الرحيم) (٤) •

(١) سورة الزمر : ٥٣ — ٥٥ •

(٢) سورة التحريم : ٨ •

(٣) سورة النور : ٣١ •

(٤) سورة التوبة : ١١٧ ، ١١٨ •

وقال تعالى : (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين • فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين • فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم) (١) •

وقال تعالى في السورة الأخرى : (وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين • قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) (٢) •

وقال تعالى : (وعصى آدم ربه فغوى • ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) (٣) •

وقال تعالى عن نوح أنه قال لقومه : (استغفروا ربكم انه كان غفارا • يرسل السماء عليكم مدرارا) (٤) •

وقال عن نوح : (رب انى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين) (٥) ، وعن

(١) سورة البقرة : ٣٥ — ٣٧ •

(٢) سورة الأعراف : ٢٢ ، ٢٣ •

(٣) سورة طه : ١٢١ ، ١٢٢ •

(٤) سورة نوح : ١٠ ، ١١ •

(٥) سورة هود : ٤٧ •

هود : (ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين) (١) ،
 وعن صالح : (فاستغفروه ثم توبوا اليه ان ربي قريب مجيب) (٢) ، وكذلك قال شعيب : (واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ان ربي رحيم ودود) (٣) وقال ابراهيم عليه السلام :
 (ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) (٤)
 وقال : (والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين) (٥) ،
 وقال : (وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم) (٦)
 وقال عن موسى عليه السلام : (فوكره موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين • قال رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له انه هو الغفور الرحيم) (٧) وقال موسى : (رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين) (٨) ، وقال موسى : (سبحانهك تبت اليك وأنا أول المؤمنين) (٩) .

-
- (١) سورة هود : ٥٢ .
 - (٢) سورة هود : ٦١ .
 - (٣) سورة هود : ٩٠ .
 - (٤) سورة ابراهيم : ٤١ .
 - (٥) سورة الشعراء : ٨٢ .
 - (٦) سورة البقرة : ١٢٨ .
 - (٧) سورة القصص : ١٥ ، ١٦ .
 - (٨) سورة الاعراف : ١٥١ .
 - (٩) سورة الاعراف : ١٤٣ .

وقال تعالى لموسى : (لا تخف انى لا يخاف لى
المرسلون • الا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فانى غفور
رحيم) (١) ، وقال موسى : (أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ان
هى الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر
لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة
وفى الآخرة انا هدنا اليك قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى
وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم
بآياتنا يؤمنون • الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى
يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل • الآية) (٢) •

وقال لخاتم الرسل : (فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر
لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) (٣) ، وقال : (انا فتحنا لك فتحا
مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) (٤) •

وقال تعالى : (ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) (٥) •

وقال : (حم • تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم • غافر

(١) سورة النمل : ١٠ ، ١١ •

(٢) سورة الأعراف ١٥٥ — ١٥٧ •

(٣) سورة محمد : ١٩ •

(٤) سورة الفتح : ١ ، ٢ •

(٥) سورة البقرة : ٢٢٢ •

الذنوب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول. لا إله إلا هو اليه
المصير •

وقال تعالى : (وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن
السيئات ويعلم ما تفعلون • ويستجيب الذين آمنوا وعملوا
الصالحات ويزيدهم) (٢) •

وقال تعالى : (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا
صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم ان الله غفور رحيم •
خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ان
صلاتك سكن لهم والله سميع عليم • ألم يعلموا أن الله هو يقبل
التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم •
وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون
الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون • وآخرون
مرجون لأمر الله اما يعذبهم واما يتوب عليهم والله عليم
حكيم) (٣) •

وفى صحيح مسلم عن أبى بردة عن الأغر عن ابن عمر عن
النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يا أيها الناس توبوا الى
الله ، فانى أتوب اليه فى اليوم مائة مرة » • وعن أبى بردة عن

(١) سورة غافر : ١ — ٣ •

(٢) سورة الشورى : ٢٥ — ٢٦ •

(٣) سورة التوبة : ١٠٢ — ١٠٦ •

الأغر المزنى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انه ليغان على قلبي ، وانى لأستغفر الله في اليوم مائة مرة » (١) .

وقال : « انى لأستغفر الله وأتوب اليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » (٢) .

وقال : « ان الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » (٣) . وقال : « من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه » (٤) . وقال : « الله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب اليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ؛ فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها ؛ فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك اذا هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك .. أخطأ من شدة الفرح » (٥) .

(١) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء باب استحياب الاستغفار والاستكثار منه .

(٢) رواه البخارى في كتاب الدعوات باب استغفار النبى صلى الله عليه وسلم في اليوم والليلة .

(٣) رواه مسلم .

(٤) رواه مسلم عن أبى هريرة ، كتاب الذكر والدعاء باب استحياب الاستغفار .

(٥) رواه مسلم عن أنس بن مالك كتاب التوبة باب في الحض على التوبة والفرح بها .

وهذا الحديث متواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛
رواه ابن مسعود ، والبراء بن عازب ، والنعمان بن بشير ،
وأبو هريرة ، وأنس بن مالك ، ففى الصحيحين عن ابن مسعود
قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الله أفرح بتوبة
أحدكم من رجل خرج بأرض دوية مهلكة ، معه راحلته عليها
طعامه وشرابه وزاده وما يصلحه ، فأضلها ، فخرج فى طلبها ،
حتى اذا أدركه الموت ولم يجدها قال : أرجع الى مكانى الذى
أضللتها فيه فأموت فيه فأأتى مكانه فغلبته عينه ، فاستيقظ فاذا
راحلته عند رأسه عليها طعامه وشرابه وزاده وما يصلحه » (١) ،
وفى السنن أنه صلى الله عليه وسلم قال : « كل بنى آدم خطاء ،
وخير الخطائين التوابون » (٢) . وقال : « ان العبد اذا أذنب
نكتت فى قلبه نكتة سوداء ، فان تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ؛
وان زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه ، فذلکم الران الذى ذكر الله :
(كلا بل ران على قلبهم ما كانوا يكسبون) » (٣) .

(١) رواه البخارى فى كتاب الدعوات باب الدعوة : ومسلم
فى كتاب التوبة باب الحض على التوبة والفرح بها واحمد فى مسنده
حديث رقم ٣٦٢٧ طبعة المعارف .

(٢) رواه الترمذى وابن ماجه والدارى والحاكم فى المستدرک
وقال : هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجها .

(٣) سورة المطففين : ١٤ .

وعن ابن عباس في قوله : (إياك اللهم) ^(١) ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ان تغفر اللهم تغفر جما وأى عبد لك لا ألما » ^(٢) .

وعن ابن عمر قال : إنا كنا نعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس الواحد يقول : « رب اغفر لي وتب علي انك أنت التواب الغفور » مائة مرة ، رواه أحمد والترمذي وقال : حديث صحيح ^(٣) .

فصل

التوبة نوعان : واجبة ومستحبة .

فالواجبة هي التوبة من ترك مأمور أو فعل محظور . وهذه واجبة على جميع المكلفين ، كما أمرهم الله بذلك في كتابه وعلى ألسنة رسوله .

والمستحبة هي التوبة من ترك المستحبات وفعل المكروهات . فمن اقتصر على التوبة الأولى كان من الأبرار المقتصدين ، ومن تاب التوبتين كان من السابقين المقربين . ومن لم يأت بالأولى

(١) سورة النجم : ٣٢ .

(٢) رواه الترمذي في كتاب التفسير — تفسير سورة النجم .

(٣) مسند الإمام أحمد رقم (٣٢٨/٦) وأبو داود وابن ماجه .

كان من الظالمين : اما الكافرين واما الفاسقين • قال الله تعالى :
 (وكنتم أزواجا ثلاثة • فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة •
 وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة • والسابقون السابقون •
 أولئك المقربون • في جنات النعيم) ^(١) وقال تعالى : (فأما ان
 كان من المقربين • فروح وريحان وجنة نعيم • وأما ان كان من
 أصحاب اليمين • فسلام لك من أصحاب اليمين • وأما ان كان
 من المكذبين الضالين • فنزل من حميم وتصلية جحيم) ^(٢) وقال
 تعالى : (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات
 بإذن الله) ^(٣) ، وقال تعالى : (انا هديناه السبيل اما شاكرا
 واما كفورا • انا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا •
 ان الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا • عينا يشرب
 بها عباد الله يفجرونها تفجيра) ^(٤) وقال : (كلا ان كتاب
 الفجار لفي سجين) الى قوله : (كلا ان كتاب الأبرار لفي
 عليين • وما أدراك ما عليون) الى قوله : (ومزاجه من تسنيم •
 عينا يشرب بها المقربون) ^(٥) ، قال ابن عباس : تمزج لأصحاب
 اليمين مزجا ، ويشرب بها المقربون صرفا •

(١) سورة الواقعة : ٧ — ١٢ •

(٢) سورة الواقعة : ٨٨ — ٩٤ •

(٣) سورة فاطر : ٣٣ •

(٤) سورة الانسان : ٣ — ٦ •

(٥) سورة المطففين : ٢٧ — ٢٨ •

والتوبة رجوع عما تاب منه الى ما تاب اليه . فالتوبة المشروعة هي الرجوع الى الله ، وإلى فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه . وليست التوبة من فعل السيئات فقط كما يظن كثير من الجاهل ، لا يتصورون التوبة الا عما يفعله العبد من القبائح كالفواحش والمظالم ، بل التوبة من ترك الحسنات المأمور بها أهم من التوبة من فعل السيئات المنهى عنها ، فأكثر الخلق يتركون كثيرا مما أمرهم الله به من أقوال القلوب وأعمالها وأقوال البدن وأعماله ، وقد لا يعلمون أن ذلك مما أمروا به ، أو يعلمون الحق ولا يتبعونه ، فيكونون اما ضالين بعدم العلم الناقع ، واما مغضوبا عليهم بمعاندة الحق بعد معرفته .

وقد أمر الله عباده المؤمنين أن يدعوه في كل صلاة بقوله :
(اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) ^(١) ولهذا نزه الله نبيه عن هذين ، فقال تعالى : (والنجم اذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحى يوحى) ^(٢) ، فالضال الذى لا يعلم الحق بل يظن أنه على الحق وهو جاهل به ، كما

(١) سورة الفاتحة .

(٢) سورة النجم : ١ - ٤ .

عليه النصارى • قال تعالى : (ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل) (١) •

والغاوى الذى يتبع هواه وشهواته مع علمه بأن ذلك خلاف الحق ، كما عليه اليهود • قال تعالى : (سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) (٢) وقال تعالى : (وائل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين • ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) الآية (٣) •

وفى الحديث عن النبى ﷺ « ان أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغى فى بطونكم وفروجكم ومضلات الفتن » (٤) •
فان النى والضلال يجمع جميع سيئات بنى آدم ، فان الانسان كما قال تعالى : « وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا » (٥) ،

(١) سورة المائدة ٧٧ •

(٢) سورة الاعراف : ١٤٦ •

(٣) سورة الاعراف : ١٧٥ ، ١٧٦ •

(٤) قال الهيثمى فى مجمع الزوائد : رواه احمد ورجاله رجال

الصحيح •

(٥) سورة الاحزاب : ٧٢ •

فبظلمه يكون غاويا ، وبجهله يكون ضالا ، وكثيرا ما يجمع بين الأمرين فيكون ضالا في شيء غاويا في شيء آخر ، اذ هو ظلوم جهول ، ويعاقب على كل من الذنبيين بالآخر ، كما قال : « في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا » ^(١) ، وكما قال : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » ^(٢) .

كما يثاب المؤمن على الحسنة بحسنة أخرى ، فاذا عمل بعلمه ورثه الله علم ما لم يعلم ، واذا عمل بحسنة دعت الى حسنة أخرى . قال تعالى : (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) ^(٣) ، وقال تعالى : (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) ^(٤) ، وقال : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) ^(٥) ، وقال : (ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا . واذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما . ولهديناهم صراطا مستقيما) ^(٦) ، وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم . لئلا يعلم أهل الكتاب

(١) سورة البقرة : ١٠ .

(٢) سورة السف : ٥ .

(٣) سورة محمد : ١٧ .

(٤) سورة مريم : ٧٦ .

(٥) سورة العنكبوت : ٦٩ .

(٦) سورة النساء ٦٦ — ٦٨ .

ألا يقدرّون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم (١) .

وهو ﷺ ذكر شهوات الغي في البطون والفروج ، كما في الصحيح أنه قال : « من تكفل لى بما بين لحييه وما بين رجليه تكفلت له بالجنة » (٢) . فان هذا يعلم عامة الناس أنه من الذنوب ، لكن يفعلونه اتباعا لشهواتهم .

وأما مضلات الفتن ، فأَن يفتن العبد فيضل عن سبيل الله وهو يحسب أنه مهتد ، كما قال : « ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين » . وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون (٣) ، وقال : (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فان الله يضل من يشاء ويهّدي من يشاء) (٤) ، وقال : (وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون الا في تباب) (٥) ، وقال : (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً . الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) (٦) .

(١) سورة الحديد : ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) لم أجده بهذا اللفظ ، وفي البخارى : من تضمن لى ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة .

(٣) سورة الزخرف : ٣٦ ، ٣٧ .

(٤) سورة فاطر : ٨ .

(٥) سورة غافر : ٣٧ .

(٦) سورة الكهف : ١٠٣ ، ١٠٤ .

ولهذا تأول أصحاب النبي ﷺ هذه الآية فيمن يتعبد بغير شريعة الله التي بعث بها رسوله ، من المشركين وأهل الكتاب كالرهبان ، وأهل الأهواء من هذه الأمة كالخوارج الذين أمر النبي ﷺ بقتالهم ، وقال فيهم : « يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم ، وقراءته مع قراءتهم ، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية • أينما لقيتموهم قاتلوهم ، فإن في قتلهم أجرا عند الله لمن قتلهم يوم القيامة » (١) • وذلك لأن هؤلاء خرجوا عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجماعة المسلمين حتى كفروا من خالفهم مثل عثمان وعلى وسائر من تولاهما من المؤمنين ، واستحلوا دماء المسلمين وأموالهم ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فيهم « يقتل أهل الإسلام ، ويدعون أهل الأوثان » (٢) •

واذا اجتمعت شهوات النفي ومضلات الفتن قوى البلاء ، وصار صاحبه مغضوبا عليه ضالا • وهذا يكون كثيرا ، بسبب حب الرئاسة ، والعلو في الأرض ، كحال فرعون • قال تعالى : « ان فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة

(١) لم أجده بهذا اللفظ وأصله في البخارى كتاب المناقب ، باب علامات النبوة عن أبى سعيد الخدرى .
(٢) جزء من حديث رواه البخارى .

منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين»^(١)
فوصفه بالعلو في الأرض والفساد . وقال في آخر السورة :
(تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض
ولا فسادا والعاقبة للمتقين)^(٢) ، ولهذا قال في حق فرعون :
(وكذلك زين لفرعون سوء عمله)^(٣)

وذلك أن حب الرئاسة شهوة خفية ، كما قال شداد بن أوس
رضي الله عنه : « يا بغايا العرب ! يا بغايا العرب ! ان أخوف
ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية » . قيل لأبي داود
السجستاني : ما الشهوة الخفية ؟ قال : حب الرئاسة . وحبك
الشيء يعمى ويصم ، فيبقى حب ذلك يزين له ما يهواه ، مما
فيه علو نفسه ، ويبغض اليه ضد ذلك ، حتى يجتمع فيه
الاستكبار ، والاختيال ، والحسد الذي فيه بغض نعمة الله
على عباده ، لاسيما من مناظره .

والكبر والحسد هما داءان أهلنا الأولين والآخرين ، وهما
أعظم الذنوب التي بها عصى الله أولا . فان إبليس استكبر وحسد
آدم ، وكذلك ابن آدم الذي قتل أخاه حسد أخاه ؛ ولهذا كان
الكبر ينافي الاسلام ، كما أن الشرك ينافي الاسلام . فان الاسلام

(١) سورة القصص : ٤ .

(٢) سورة القصص : ٨٣ .

(٣) سورة غافر ٣٧ .

هو الاستسلام لله وحده ، فمن استسلم له ولغيره فهو مشرك به ، ومن لم يستسلم له فهو مستكبر ، كحال فرعون وملئه • ولذلك قال لهم موسى : (وأن لا تعلو على الله انى آتيكم بسلطان مبين) ^(١) ، وقال تعالى عن فرعون : « واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم اليينا لا يرجعون » ^(٢) ، وقال تعالى : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » ^(٣) •

ومن أسلم وجهه لله حنيفا فهو المسلم الذى على ملة ابراهيم الذى قال له ربه : أسلم ، قال : أسلمت لرب العالمين •

وهذا الاسلام هو دين الأولين والآخرين من الأنبياء وأتباعهم ، كما وصف الله به فى كتابه نوحا وابراهيم وموسى ويوسف وسليمان وغيرهم من النبيين ، مثل قول موسى لقومه : « ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين » ^(٤) ،

وقال تعالى : « انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا » وقال نوح عليه السلام :

(١) سورة الدخان : ١٩ •

(٢) سورة القصص : ٣٩ •

(٣) سورة النمل : ٤١ •

(٤) سورة يونس : ٨٤ •

(٥) سورة المائدة : ٤٤ •

« فان توليتم فما سألتكم من أحر ان أجرى الا على الله وأمرت
أن أكون من المسلمين » (١) .

وقال يوسف : « توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين » (٢) ،
وقالت بلقيس : « وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » (٣) .

وليس الغى مختصا بشهوات البطون والفروج فقط ، بل
فى شهوات البطون والفروج وشهوات الرئاسة والكبر والعلو
غير ذلك . فهو اتباع الهوى وان لم يعتقد أنه هوى ، بخلاف
الضال ، فانه يحسب أنه يحسن صنعا ، ولهذا كان إبليس أول
الغاوين ، كما قال : « فبما أغويتنى لأفعدن لهم صراطك
المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم
وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين » (٤) ، وقال : « رب
بما أغويتنى لأزینن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين . الا عبادك
منهم المخلصين » (٥) .

وقال تعالى : « ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين
كنتم ترعون . قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين

(١) سورة يونس : ٧٢ .

(٢) سورة يوسف :

(٣) سورة النمل : ٤٤ .

(٤) سورة الاعراف : ١٦ ، ١٧ .

(٥) سورة الحجر : ٣٩ ، ٤٠ .

أغوينَا أغوينَاهم كما غوينَا تبرأنا اليك ما كانوا آيَانَا
يعبدون» (١) .

وقال تعالى : « فكبكبوا فيها هم والغاوون • وجنود
إبليس أجمعون » (٢) .

وانما في الحديث ما يخاف على هذه الأمة من النغى • وهو
شهوات النغى في البطون والفروج • فأما النغى الذى هو الاستكبار
عن اتباع الحق ، فذاك أصل الكفر ، فصاحبه ليس من هذه
الأمة ، كإبليس وفرعون وغيرهما • وأما غى شهوات البطون
والفروج ، فذاك يكون لأهل الايمان ثم يتوبون ، كما قال :
« وعصى آدم ربه فغوى • ثم اجتباه ربه فتاب عليه
وهدى » (٣) .

وفي السنن والمسند من حديث ليث بن سعد ، عن يزيد بن
الهاد ، عن عمرو ، عن أبى سعيد الخدرى قال : سمعت رسول
الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ان إبليس قال لربه عز وجل :
بعزتك وجلالك لأبرح أغوى بنى آدم مادامت الأرواح فيهم •
فقال له ربه عز وجل : فبعزتى وجلالى لا أبرح أغفر لهم ما
استغفرونى » (٤) .

(١) سورة القصص : ٦٢ ، ٦٣ .

(٢) سورة الشعراء : ٩٤ ، ٩٥ .

(٣) سورة طه : ١٢١ ، ١٢٢ .

(٤) المسند — طبعة المكتب الاسلامى — (٢٩/٣) .

فصل

وجميع ما يتوب العبد منه ، سواء كان فعلا أو تركا ، قد لا يكون كان عالما بأنه ينبغي التوبة منه ، وقد يكون كان عالما بذلك فان الانسان كثيرا ما يكون غير عالم بوجوب الشيء أو قبحه ، ثم يتبين له فيما بعد وجوبه أو قبحه ، ويتركه أو يفعله لضعف المقتضى لفعل الواجب ، أو قوة المقتضى لفعل القبيح . لكن هذا لا يكاد يقع الا مع ضعف العلم بوجوبه وقبحه ، والا فاذا كمل العلم استلزم الارادة الجازمة في الطرفين ، ولهذا قال سبحانه : (انما التوبة للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما) (١) . قال أبو العالية : قال أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم : كل من عصى الله فهو جاهل ، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب .

وقال تعالى : « واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة انه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم » (٢) .

والمؤمن لا يزال يخرج من الظلمات الى النور ، ويزداد هدى ، فيتجدد له من العلم والايمان ما لم يكن قبل ذلك ،

(١) سورة النساء : ١٧ .

(٢) سورة الأنعام : ٥٤ .

فيُتوب مما تركه وفعله ، والتقوية تصقل القلب وتجليه مما عرض له من رين الذنوب ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ان العبد اذا أذنب نكتت له في قلبه نكتة سوداء ، فان تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وان زاد زيد فيها حتى يعلو قلبه ، فذلك الران الذي قال الله : (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) ^(١) » .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : « إنه لينان على قلبي ، وإنى لأستغفر الله في اليوم مائة مرة » .

والتوبة من الاعتقادات أعظم من التوبة من الإرادات ، فإن من ترك واجبا أو فعل قبيحا يعتقد وجوبه وقبحه ، كان ذلك الاعتقاد داعياً له إلى فعل الواجب ومانعاً من فعل القبيح ، فلا يكون في فعله وتركه ثابت الدواعي والصوارف ، بل تكون دواعيه وصوارفه متعارضة . ولهذا يكون الغالب على هذا هو التلوم ، وتكون أنفسهم لوامة ، تارة يؤدون الواجب وتارة يتركونه ، يتركون القبيح ، وتارة يفعلونه ، كما تجده في كثير من فساق القبلة الذين يؤدون الحقوق تارة ويمنعونها أخرى ، ويفعلون السيئات تارة ويتركونها أخرى ، لتعارض الإرادات في قلوبهم ،

إذ معهم أصل الإيمان الذي يأمر بفعل الواجب وينهى عن فعل القبيح ، ومعهم من الشبهات والشهوات ما يدعوهم إلى خلاف ذلك .

وأما ما فعله الإنسان مع اعتقاد وجوبه ، وتركه مع اعتقاد تحريمه ، فهذا يكون ثابت الدواعي والصوارف ، أعظم من الأول بكثير . وهذا تحتاج توبته إلى إصلاح اعتقاده أولاً وبيان الحق . وهذا قد يكون أصعب من الأول ، إذ ليس معه داع إلى أن يترك اعتقاده ، كما كان مع الأول داع إلى أن يترك مراده . وقد يكون أسهل إذا كان له غرض فيما يخالف موجب الاعتقاد . مثل الآصار والأغلال التي على أهل الكتاب ، وإذلال المسلمين لهم ، وأخذ الجزية منهم ، مع مخالفة المسلمين له ، فهذا قد يكون داعياً إلى أن ينظر في اعتقاده : هل هو حق أو باطل حتى يتبين له الحق . وقد يكون أيضاً مرغباً له في اعتقاد يخرج به من هذا البلاء .

وكذلك قهر المسلمين لعدوهم بالأسر يدعوهم إلى النظر في محاسن الإسلام . فللرغبة والرهبة تأثير عظيم في معاونة الاعتقاد ، كما للاعتقاد تأثير عظيم في الفعل والترك . فكل واحد من العلم والعمل بموجبه ، والإرادة رغبة ورهبة ، والعمل بموجبها يؤيد النظر والعلم الموافق لتلك الإرادة والعمل ، كما يقال : من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم .

وفي القرآن شواهد هذا متعددة ، في مثل قوله : « ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشدّ تثبيتاً * وإذا لأتيناهم من لدنا أجراً عظيماً » ولهديناهم صراطاً مستقيماً « (١) » .

وفي قوله : « اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم » (٢) » .

فاذا كان الإنسان معاقباً على الاعتقاد كما يعاقب الكفار على كفرهم ، كانت التوبة منه ظاهرة ، كما قال تعالى : « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم * أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم » (٣) . وقال تعالى : « فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم » (٤) » .

(١) سورة النساء : ٦٦ ، ٦٨

(٢) سورة الحديد : ٢٨

(٣) سورة المائدة : ٧٣ ، ٧٤

(٤) سورة التوبة : ٥ .

فأما الاعتقاد المغفور : كالخطأ والنسيان الذى لا يؤاخذ الله به هذه الأمة ، كما فى قوله : « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا » (١) • وقد ثبت فى الصحيح أن الله قد فعل ذلك (٢) • وكما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « اذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، واذا اجتهد فأخطأ فله أجر » (٣) • فهذا قد يقال فى مثله إن قيل إنه يتاب منه فكيف يتاب مما لازم فيه ولا عقاب ؟ وإن قيل : لا يتاب منه فكيف لا يرجع الإنسان الى الحق اذا تبين له ؟

وجواب ذلك أنه يتاب منه كما يتاب من غيره ، لأن صاحبه قد ترك ما هو مأمور به فى نفس الأمر من العلم وما يتبعه من أعمال القلوب والجوارح • إما لعجزه عن بلوغه وإما لتقصيره فى طلبه •

وأيضاً ، فإنه قد فعل من الاعتقاد وما يتبعه من أعمال القلوب والجوارح ما هو منهى عنه فى نفس الأمر ، لكن سقط عنه النهى لعدم قدرته على معرفة قبحه • والتكليف مشروط

(١) سورة البقرة : ٢٨٦

(٢) معناه فى مسلم كتاب الايمان باب بيان قوله تعالى « ان تبدوا ما فى انفسكم أو تخفوه » والمسند طبعة المعارف ج ٣ / ٣٤١ —

٣٤٢ رقم ٢٠٧٠ ، ج ٥ ص ٣٠ — ٣١ رقم ٣٠٧١ •
(٣) رواه البخارى فى كتاب الاعتصام ومسلم فى كتاب الاقضية.

بالتمكن من العلم والقدرة ، فلا يكلف العاجز عن العلم ما هو عاجز عنه ، والناسي والمخطيء كذلك • لكن إذا تجدد له قدرة على العلم صار مأموراً بطلبه ، وإذا تجدد له العلم صار مأموراً حينئذ باتباعه • وصار في هذه الحال مذموماً على ترك ما يقدر عليه من طلب العلم الواجب ، وعلى ترك اتباع ما تبين له من العلم •

وأيضاً ، فما دام غير مستيقن للحق فهو مأمور بطلب العلم الذي يبين له الحق • والمعتقد المخطيء لا يكون مستيقناً قط ، فإن العلم واليقين يجده الإنسان من نفسه كما يجد سائر إدراكاته وحركاته ، مثلما يجد سمعه وبصره وشمه وذوقه ، فهو إذا رأى الشيء يقيناً يعلم أنه رآه ، وإذا علمه يقيناً يعلم أنه علمه • وإذا لم يكن مستبقنا فأنه لا يجد ما يجده العالم ، كما إذا لم يستيقن رؤيته لم يجد ما يجده الرائي ، وإنما يكون عنده ظن ونوع إرادة توجب اعتقاده •

هذا هو الذي يجده بنو آدم في نفوسهم كما قال سبحانه : « إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى » (١) وإذا كان الإنسان مأموراً بطلب العلم الذي يحتاج إليه بحسب إمكانه وهو إذا لم يجد العلم اليقيني

يعلم أنه لم يجد العلم فهو مأمور بالطلب والاجتهاد ، فإن ترك ما أمر به كان مستحقاً للذم والعقاب على ذلك فإذا تبين له الحق وعلمه ، وعلم أنه كان جاهلاً به معتقداً غير الحق كان تائباً ، بمعنى أنه رجع من الباطل إلى الحق ، وإن كان الله قد عفى عنه ما رجع عنه لعجزه إذ ذاك • وكان أيضاً تائباً مما حصل فيه أولاً من تفريط في طلب الحق ، فكثير من خطأ بني آدم من تفريطهم في طلب الحق لا من العجز التام • وكان أيضاً تائباً من اتباع هواه أولاً بغير هدى الله ، فإن أكثر ما يحمل الإنسان على اتباع الظن المخطيء هو هواه ، كما قال تعالى : (إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس) • وليس توبة هذا وحاله كحال من كان عاجزاً عن الفعل ثم قدر عليه كالمريض الذي لا يطيق القيام إذا أقدر عليه بعد ذلك ، وكالخائف إذا أمن ، وكالمصلى بتيمم ، ونحو هؤلاء •

وذلك أن هؤلاء إذا كانت إرادتهم للفعل المأمور به على وجه الأعمال ثابتة في قلوبهم ، وقد عملوا ما يقدرون عليه من المراد ، وإنما تركوا تمامه لعجزهم — كان لهم مثل ثواب الفاعل ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه عن أبي موسى : « إذا مرض العبد أو سافر كتب له من العمل ما كان يعمل وهو صحيح مقيم » (١) • وفي الصحيح عن

النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم ، حبسهم العذر » (٢) •

وقد قال تعالى : (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم) (٣) فهؤلاء لهم علم بالمأمور به الكامل ، واعتقاد الأمر به ، وإرادة فعله بحسب الإمكان ، وهذا كله من أدائهم للمأمور به ، فإذا تجددت لهم قدرة لم تتجدد رغبة في الفعل الكامل ، وإنما يتجدد العمل بتلك الرغبة المتقدمة وإن كان لابد لهذا الفعل من إرادة تخصه ، ولم يكن هؤلاء مأمورين بذلك إلا في هذه الحال فقط ، كما تؤمر المرأة بالصلاة عند انقضاء الحيض ، وكما يؤمر الصبي بما يجب عليه عند بلوغه • وكما يؤمر المزكى بالزكاة بعد ملك النصاب والحوال والمصلى بالصلاة بعد دخول الوقت •

وأما الناسى والمخطيء فإنه لم يكن قد أتى بالعلم والاعتقاد والإرادة فلا يثاب على هذه الأمور التي لم تكن له ، بل يكون الذي حصل له ذلك أفضل منه بها ، كما قال تعالى : (هل يستوى

(١) رواه البخارى في كتاب الجهاد

(٢) رواه البخارى في كتاب الجهاد ومسلم في كتاب الامارة

(٣) سورة النساء : ٩٥

الذين يعلمون والذين لا يعلمون (١) ، فنفى المساواة بين الذى يعلم والذى لا يعلم مطلقاً ، لم يستثن المعذور كما استثنى فى تفضيل المجاهد على القاعد المعذور .

وكذلك سائر ما فى القرآن من نحو هذا ، كقوله : (وما يستوى الأعمى والبصير * ولا الظلمات ولا النور * ولا الظل ولا الحرور * وما يستوى الأحياء ولا الأموات) (٢) وقوله : (مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً) (٣) ، وقوله (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها) (٤) .

ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق عليه : « اذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، واذا اجتهد فأخطأ فله أجر » (٥) ، لم يجعل أجر العاجز على إصابة الصواب مع اجتهد كأجور القادر عليه . كما جعل للمريض والمسافر مثل

(١) سورة الزمر : ٩

(٢) سورة فاطر : ١٩ — ٢٢

(٣) سورة هود : ٢٤

(٤) سورة الانعام : ١٢٢

(٥) لفظ مسلم (اذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ،

واذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر) عن عمرو بن العاص رقم (١٧١٦) .

ثواب الصحيح المقيم ، كما جعل المعذور من القاعدين عن الجهاد الذى تمت رغبته بمنزلة المجاهد ، فان الأصل هو القلب ، والبدن تابع • فالمستويان فى عمل القلب إذا فعل كل منهما بقدر بدنه متماثلان ، بخلاف المتفاضلين فى عمل القلب : علمه وإرادته وما يتبع ذلك ، فانهما لا يتماثلان ولهذا يعاقب العبد على ما تركه من الإيمان بقلبه •

وإن قيل : إن ذلك تكليف مالا يطاق ، ولا يعاقب على ما عجز عنه بدنه باتفاق المسلمين ، فهو يعاقب على ترك ما أمر بإرادته وفعله وإن كانت نفسه لا تريده ولا تحبه ، وليس هو معاقباً على ترك ما عجز منه بدنه ، كجهاد المقعد والأعمى ونحوهما • ونفسه إنما لا تعلم الحق الذى بعث الله به رسله ولا تريده لتفريطه وتعديه ، إذ آيات ذلك الحق ظاهرة وهو محبوب ، وقد خلق الله كل مولود على الفطرة التى تتضمن القوة على معرفة هذا الحق وعلى محبته ، ولكن غير فطرته بما يقلده عن غيره ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق عليه : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تنتج البهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟! » (١) • وإذا قد خلق على الصحة والسلامة • فهو

(١) رواه البخارى ومسلم فى كتاب القدر باختلاف يسير فى الالفاظ عن أبى هريرة رضى الله عنه .

يستحق العقوبة على ما غيره من خلق الله بتفريطه وعدوانه •
لاتباعه الظن وما تهوى الأنفس •

وقد بعث الله الرسل مبشرين ومنذرين ، وقال سبحانه :
(وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) (١) وهذا مما يظهر به
الفرق بين المجتهد المخطيء والناسي من هذه الأمة في المسائل
الخبرية والعملية وبين المخطيء من الكفار والمشركين وأهل
الكتاب الذى بلغته الرسالة ، إذا قيل إنه غير معاند للحق ، فان
ذاك لا يكون خطؤه إلا لتفريطه وعدوانه ، لا يتصور أن يجتهد
فيكون مخطئاً في الإيمان بالرسول ، بل متى اجتهد — والاجتهاد
استفراغ الوسع في طلب العلم بذلك — كان مصيباً للعلم به
بلا ريب •

فان دلائل ما جاء به الرسول ودواعيه في نهاية الكمال
والتمام الذى يشمل كل من بلغته ، ولا يترك أحد قط اتباع
الرسول إلا لتفريط وعدوان فيستحق العقاب ، بخلاف كثير من
تفصيل ما جاء به ، فانه قد يعزب علمه عن كثير من خواص
الأمة وعوامها ، بحيث لا يكونون في ترك معرفته مقصرين
ولا مفرطين فلا يعاقبون بتركه ، مع أنهم قد آمنوا به إيماناً
مجملاً في إيمانهم بما جاء به الرسل فهم آمنوا به مجملاً ومعهم

أصول الإيمان به ، كما أن الفاسق معه الدواعي لفعل المأمور وترك المحذور •

فلهذا كان المخطيء بالتأويل من هذه الأمة ، والفاسق بالفعل مع صحة الاعتقاد ، كل منهما محسناً من وجه ، وليس واحد منهما كالكفار من المشركين وأهل الكتاب ، وإن كانوا في ذلك على درجات متفاوتة ، بل كل منهما ليس تاركاً لما أمر به من الاعتقاد والعمل مطلقاً ولا فاعلاً لظده مطلقاً ، بل المتأول قد آمن إيماناً عاماً بكل ما جاء به الرسول ، واستسلم لكل ما أمره به • وهذا الإيمان والإسلام يتناول ما جهله ، ويدعوه إلى الإيمان والإسلام المفصل إذا علمه ، لكن عارض ذلك من جهله وظلمه لنفسه ما قد يكون مغفوراً له وقد يكون معذباً به •

ولذلك الفاجر بالعمل معه من الإيمان بقبح الفعل وبغضه ما هو داع له إلى فعل الأصل المأمور به وداع له إلى تركه ، لكن عارض ذلك من هواه ما منع كمال طاعته ، بخلاف المكذب للرسول صلى الله عليه وسلم والكافر به ، فإنه لم يصدق بالحق ولم يستسلم له لا جملة ولا تفصيلاً ، لكن قد يكون ما اتبعه من ظنه وهواه موجباً لبعض ما جاء به الرسول ومانعاً له من النظر فيه بحيث لا يستطيع مع ذلك أن يسمع به ، فهذا واقع ، كما قال سبحانه : (وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين

عرضاً * الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً (١) وقال تعالى : (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأئساد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين * الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون * أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) (٢) •

لكن عدم هذه الاستطاعة كان بتفريطه وعدوانه ، ومن كان تركه للمأمر بذنب منه ، أو ضرورته إلى المحذور بذنب منه — لم يكن ذلك مانعاً من ذمه وعقابه ، ومن هذا قوله سبحانه : (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) (٣) ، وقال تعالى (وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون) (٤) وقال : (وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً) (٥) •

وبهذا يظهر ضعف قول طائفة من المتكلمين الذين يقولون :

(١) سورة الكهف : ١٠٠ ، ١٠١

(٢) سورة هود : ١٨ — ٢

(٣) سورة الانعام — آية ١١٠

(٤) سورة البقرة : ٨٨

(٥) سورة النساء : ١٥٥

الخطأ والإثم يتلازمان • ثم منهم من يقول : كل مجتهد في المسائل العملية مصيب ، كما يقوله كثير من المعتزلة والأشعرية • ومنهم من يقول : بل فيها مخطيء ، والمخطيء آثم ، كما يقوله المريسي وغيره ، وذلك أنهم اعتقدوا أنه حيث يكون مخطئاً يكون تاركاً لما وجب عليه •

ثم قال الأولون : فإذا لم يكن تاركاً للمأمور به ، فلا يكون لله في المسألة حكم معين ، أولاً يكون الحكم المنصوص حكماً في حقه إذا لم يتمكن من معرفته •

وقال الآخرون : بل إذا كان مخطئاً يكون تاركاً للمأمور به فيكون آثماً •

والتحقيق أنه مأمور به أمراً مطلقاً ، لكن شرط الإثم بمنزلة التمكن من معرفته ، فإذا لم يتمكن من معرفته لا يكون شرط الإثم موجوداً فيه • ولكن ذلك لا ينفي أن يكون هو المأمور به ، وهو الذي يحبه الله ويرضاه ، ويثبت فاعله إذا فعله • وإنما سقط عن بعض العباد لفوات الشرط في حقه خاصة ، وحينئذ يكون النزاع في بعض المواضع نزاعاً لفظياً •

ولهذا اختلف العلماء : هل هو مصيب في اجتهاده وإن كان مخطئاً في نفس الأمر ؟ أو هو مخطيء في اجتهاده وفي نفس الأمر ؟ على قولين ذكرهما القاضي روايتين عن أحمد • وذلك أن

الخطأ في الاجتهاد قد يعنى به القصور والتقصير ، وقد لا يعنى به إلا التقصير إذ العاجز عن معرفة الحكم الذى لله عاجز قاصر ، ليس بمقتصر ولا مفرط فيما بعد عليه • فإذا قال : أخطأ في اجتهاده ، أراد أخطأ في استدلاله الموصل له إلى الحق ، إذ لو أصابه لأصاب الحق ، لكنه لم يكن قادراً على هذا الاستدلال فلا يعاقب على تركه •

ومن قال : لم يخطئ في اجتهاده ، أراد أنه لم يخطئ ، فيما قدر عليه من الاجتهاد ، بل فعله على وجهه ، لكن لم يكن مقدوره من الاجتهاد كافياً في إدراك المطلوب في نفس الأمر • ومثل هذا النزاع أن يقال : هل فعل ما أمر به أو لم يفعل ما أمر به ؟ فالأمور به في نفس الأمر لم يفعله ، وأما الأمور به في حقه من العمل الممكن فقد فعله • ولذلك إذا اشتبهت أخته بأجنبية ، هل يقال : الحرام — في نفس الأمر — واحدة ، أم الاثنتان محرمتان ؟ على القولين بهذا الاعتبار •

فصل

فأما التوبة من الحسنات فلا تجوز عند أحد من المسلمين ، بل من تاب من الحسنات ، مع علمه بأنه تاب من الحسنات ، فهو إما كافر وإما فاسق ، وإن لم يعلم أنه تاب من الحسنات فهو جاهل ضال وذلك أن الحسنات هي الإيمان والعمل الصالح ، فالتوبة من الإيمان هي الرجوع عنه ، والرجوع عنه ردة ،

وذلك كفر • والتوبة من الأعمال الصالحة رجوع عما أمر الله به ، وذلك فسوق أو معصية •

والله تعالى حبيب إلى المؤمنين الإيمان ، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان • فكل حسنة يفعلها العبد إما واجبة وإما مستحبة • والتوبة تتضمن الندم على ما مضى ، والعزم على ألا يعود الى مثله في المستقبل • والندم يتضمن ثلاثة أشياء : اعتقاد قبح ما ندم عليه ، وبغضه وكرهه ، وألم يلحقه عليه • فمن اعتقد قبح ما أمر الله به أمر إيجاب أو استحباب ، أو أبغض ذلك وكرهه بحيث يتألم على فعله ، ويتأذى بوجوده ، ففيه من النفاق بحسب ذلك • وهو إما نفاق أكبر يخرج من أصل الإيمان ، وإما نفاق أصغر يخرج من كماله الواجب عليه • قال تعالى : « ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم » (١) ، وقال تعالى : « وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون • وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون » (٢) وقال تعالى : « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » (٣) •

(١) سورة محمد : ٢٨ •

(٢) سورة التوبة ١٢٤ ، ١٢٥ •

(٣) سورة الاسراء : ٨٢ •

بل إذا علم العبد أن هذا الفعل قد أمره الله به وأحبه ، فاعتقد هو أن ذلك ليس مما أمر الله به وأبغضه وكرهه ، فهو كافر بلا ريب • فمثل هذه التوبة عن الحسنات هي ردة محضة عن الإيمان وكفر بالإيمان : « ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين » (١) •

فإطلاق القول بأن الحسنات يتاب منها هو كفر يجب أن يستتاب صاحبه ، إذ معناه أنه يؤمر بالرجوع عن الحسنات ، واعتقاد أن الرجوع عن الحسنات يقرب إلى الله ، وهذا كفر بلا ريب • ثم إن هذه التوبة متناقضة ممتنعة في نفسها ، فإن التائب من الحسنات إن اعتقد أن هذه التوبة حسنة ، فعليه أن يتوب منها ، فتكون باطلة فلا يكون قد تاب من الحسنات • وإن اعتقد أنها سيئة كان مقرا بأن هذه التوبة محرمة ، فقد التزم أحد أمرين : إما أنه لم يتب من الحسنات ، أو تاب توبة محرمة • وهذا اشتبه عليه حال السابقين المقربين الذين يتوبون من ترك المستحبات ، أو فعل المكروهات غير المحرمات ، فظن من ترك المستحبات ، أو فعل المكروهات غير المحرمات ، فظن أنهم تابوا مما فعلوه من الحسنات وتركوه من المحرمات ، فانهم لو تابوا من ذلك لكانوا مرتدين إما عن أصل الإيمان وإما عن كماله • وإنما هي توبة عما تركوه من مستحب وفعلوه من

مكروه ، مثل أن يكون العبد يصلى صلاة مجزئة غير كاملة ،
فتبلغه صلاة النبي صلى الله عليه وسلم المستحبة ، فيصلى
كصلاته ويندم على ما كان يفعله من الصلاة الناقصة •

فهو لا يتوب مما فعله من الحسن ، وإنما يتوب مما تركه
من الحسن ، ولهذا ينسب نفسه الى اتفريط بما أضاعه من
الحسنات • وكذلك إذا سمع فضائل الأعمال المستحبة وما وعد
الله أصحابها من علو الدرجات ، فيندم على ما فرط من ذلك ،
ويعزم على فعلها فهو توبة مما تركه من الحسنات •

وكذلك لو كان يصبر على المكاره ، مثل الفقر والمرض
وخوف العدو ، من غير رضى بذلك ، فبلغه مقام أهل الرضا ،
وأنه أعلى من الصبر الذى لارضا معه ، وأن هؤلاء يستحقون
رضوان الله عليهم ، وأن أول من يدعى الى الجنة الحمادون
الذين يحمدون الله على السراء والضراء ، وما روى عن النبي
صلى الله عليه وسلم أنه قال لابن عباس : « ان استطعت أن تعمل
الله بالرضا مع اليقين فافعل ، وإن لم تستطع فان فى الصبر على
ما يكره خيراً كثيراً » (١) •

فهذا يتوب من ترك الرضا ، لا من نفس ما أمر به من

(١) قال الحافظ العراقي فى تخريجه للإيحاء رواه الترمذى من
حديث ابن عباس ، ولم أهتم لموضعه •

الصبر ، فان الصبر يبقى مع الرضا ، لا بد من الصبر في الحالين ، لكن تذهب مرارة الكراهة بالرضا ، وتلك المرارة ليست من الحسنات المأمور بها ، ولا هي داخلة أيضاً في حد الصبر المأمور به ، بل الصبر قد تكون معه مرارة ، وقد لا تكون •

ومن اعتقد أن الصبر لا يكون إلا مع مرارة ، وأنه ضد الرضا فقد تكلم بعرف بعض المتأخرين ، وليس ذاك عرف الكتاب والسنة ، فان الله تعالى أمرنا بالصبر وأثنى على أصحابه في أكثر من تسعين موضعاً من كتابه •

والله تعالى لا يأمر بما هو مكروه أو ترك الأفضل •
ولا يكون ذلك إلا بفعل الحسن ، لا بترك الأحسن •

وبهذا يعرف قول من قال : « حسنات الأبرار سيئات المقربين » مع أن هذا اللفظ ليس محفوظاً عن قوله حجة ، لا عن النبي ﷺ ولا عن أحد من سلف الأمة وأئمتها • وإنما هو كلام • • • وله معنى صحيح ، وقد يحمل على معنى فاسد •

أما معناه الصحيح فوجهان :

أحدهما : أن الأبرار يقتصرون على أداء الواجبات وترك المحرمات ، وهذا الاقتصار سيئة في طريق المقربين • ومعنى كونه سيئة أن يخرج صاحبه عن مقام المقربين ، فيحرم درجاتهم ، وذلك مما يسوء من يريد أن يكون من المقربين •

فكل من أحب شيئاً وطلبه إذا فاتته محبوبه ومطلوبه ساءه ذلك •
فالمقربون يتوبون من الاقتصار على الواجبات ، لا يتوبون من
نفس الحسنات التي يعمل مثلها الأبرار ، بل يتوبون من
الاقتصار عليها • وفرق بين التوبة من فعل الحسن وبين التوبة
من ترك الأحسن والاقتصار على الحسن •

الثانى : أن العبد قد يؤمر بفعل يكون حسناً منه ، إما
واجباً ، وإما مستحباً ، لأن ذلك مبلغ علمه وقدرته • ومن يكون
أعلم منه وأقدر لا يؤمر بذلك ، بل يؤمر بما هو أعلى منه ، فلو
فعل هذا ما فعله الأول كان ذلك سيئة •

مثال ذلك أن العامى يؤمر بمسألة العلماء المأمونين على
الإسلام والرجوع إليهم بحسب قوة إدراكه ، وإن كان فى ذلك
تقليد لهم ، إذ لا يؤمر العبد إلا بما يقدر عليه • وأما العلماء
القادرون على معرفة الكتاب والسنة والاستدلال بهما فلو
تركوا ذلك وأتوا بما يؤمر به العامى لكانوا مسيئين بذلك •

وهذا كما يؤمر المريض أن يصلى قائماً ، فإن لم يستطع
فقاعداً ، فإن لم يستطع فعلى جنب • وكما يؤمر المسافر أن
يصلى الظهر والعصر والعشاء ركعتين فى السفر ، وهذا لو
فعله المقيم لكان مسيئاً تاركاً للفرض ، بل فرضه أربع ركعات •
فإن المرض والسفر لا ينقص العبد عن كونه مقرباً إذا كان ذلك
حاله فى الإقامة ، فقد ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله

عليه وسلم أنه قال : « اذا مرض العبد أو سافر كتب له من العمل ما كان يعمل وهو صحيح مقيم » (١) •

بخلاف العلم والجهاد في سبيل الله بالنفس والمال والمسابقة إلى الخيرات ❀ فان الله يقول : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » (٢) ، ويقول : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم القاعدين على درجة وكلا وعد الله الحسنى » (٣) ، ويقول في كتابه : « لا يستوى منكم من أنفق قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى » (٤) ، ويقول : « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين • الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون • يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم • خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم » (٥) •

(١) رواه البخارى في كتاب الجهاد .

(٢) سورة المجادلة : ١١ .

(٣) سورة النساء : ٩٥ .

(٤) سورة الحديد : ١٠ .

(٥) سورة التوبة : ١٩ — ٢٢ .

وكذلك في السحيحين عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تسبوا أصحابي ، فو الذي نفسى بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً مع ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » (١) .
وقال : « خير القرون قرن الذين بعثت فيهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » (٢) .

فالعلم والجهاد كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وما يدخل في ذلك هو واجب على الكفاية من المؤمنين . فمن قام به كان أفضل ممن لم يقم به ، وإذا ترك ذاك من تعين عليه كان مذنباً مسيئاً ، فيكون ذلك سيئة له إذا تركه ، وحسنة مفضلة له على غيره إذا فعله . وإن كان القيام بالواجبات بدون ذلك من حسنات من لم يكن قادراً على ذلك . فحسنات هؤلاء الأبرار — وهي الاقتصار على ذلك — سيئات أولئك المقربين .

وكذلك السابقون الأولون من هذه الأمة فيما فعلوه من الجهاد والهجرة لو تركوا ذلك واقتصروا على ما دونه كان ذلك من أعظم سيئاتهم . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا » (٣) .

(١) رواه البخارى في كتاب « أصحاب النبي » ومسلم في فضائل الصحابة وأبو داود في السنة .

(٢) رواه البخارى ومسلم في كتاب فضائل الصحابة .

(٣) رواه البخارى ومسلم وهو في سنن النسائي ومسنده

أحمد مع اختلاف في اللفظ .

كان الاقتصار على مجرد ذلك من حسنات الأبرار الذين ليسوا من أولئك السابقين •

وكذلك المرسلون لهم مأمورات لو تركوها كان ذلك سيئات • وإن كان فعل ما دونها حسنات لغيرهم ممن لم يؤمر بذلك ، إلى نظائر ذلك مما يؤثر فيه العبد بفعل لم يؤمر به من هودونه ، فيكون ترك ذلك سيئة في حقه ، وهو من المقربين إذا فعله ، ويكون فعل ما دون ذلك حسنات لمن دونه •

وذلك أن الإنسان يفضل على غيره إما بفعل مستحب في حقهما وإما بما يؤمر به أحدهما دون الآخر فيفعله ، وتخصيصه بفعله قد يكون لقدرته وقد يكون لامتحانه بسببه ، كمن له والدان فإنه يؤمر ببرهما ويكون بذلك أفضل من لم يعمل مثل عمله • كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم في حق المتصدقين بفضول أموالهم المشاركون لغيرهم في الأعمال البدنية : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » فهؤلاء المفضلون الاقتصار على ما دون هذه الأمور سيئات في حقهم وحسنات لمن ليس مثلهم في ذلك •

فهذان الوجهان كلاهما معنى صحيح لقول القائل :
« حسنات الأبرار سيئات المقربين » •

وأما المعنى الفاسد فأن يظن الظان أن الحسنات التي أمر الله بها أمراً عاماً يدخل فيه الأبرار ويكون سيئات للمقربين ،

مثل من يظن أن الصلوات الخمس ومحبة الله ورسوله والتوكل على الله وإخلاص الدين لله ونحو ذلك هي سيئات في حق المقربين .
فهذا قول فاسد غلافيه قوم من الزنادقة المنافقين المنتسبين إلى العلماء والعباد ، فزعموا أنهم يصلون إلى مقام المقربين الذين لا يؤمرون بما يؤمر به عموم المؤمنين من الواجبات ، ولا يحرم عليهم ما يحرم على عموم المؤمنين من المحرمات كالزنا والخمر والميسر .

وكذلك زعم قوم في أحوال القلوب التي يؤمر بها جميع المؤمنين أن المقربين لا تكون هذه حسنات في حقهم .

وكلا هذين من أخبث الأقوال وأفسدها .

وإنما قلنا : إن التائب من الحسنات — إن علم أنها حسنات — وتاب منها فقد أذنب إما بكفر أو فسوق أو معصية . وإن لم يعلم أنها حسنات فهو ضال جاهل ، لأنه إذا تاب مما يسمى حسنة ، وكان حسنة في الشريعة حقيقة قد أمر الله بها ، راجع عن طاعة الله التي هي طاعته وهي حسنة . والرجوع عن طاعة الله ودينه لا يخرج عن أن يكون ردة عن أصل الدين فيكون كفراً مغلظاً ، وإما عن كماله . هذا لو كان الرجوع بنفس الترك ، فإن ترك الإيمان كفر ، وترك الواجبات إما فسق وإما معصية ، وترك المستحبات المتطوعة يؤخر درجته هذا إذا كان تركاً محضاً ، فأما إذا اعتقد مع ذلك أن الحسنات التي يحبها الله

ورسوله مما يتاب منها بحيث يندم العبد عليها ، فيعتقد أن تركها خير من فعلها ، أو أنها ليست مأموراً بها ، أو أنها لا تقرب إلى الله أو لا تنفع عنده ، أو أبغضها وكرهها ، ورجع عنها وتألم من فعلها متديناً بذلك — فهذا كافر مرتد تجب استتابته بلا نزاع بين العلماء • وهذا هو مسمى التوبة • فعلم أن القول بأن الحسنات يتاب منها كفر محض •

وأما إن لم يعلم أنها حسنات ، بل تاب مما كان يسميه — أو غيره — حسنات ، أو كان حسنة في الشريعة ولم يعلم العبد أنه حسنة بل ظن أنه سيئة ، أو كان سيئة منهاياً عنها ، واعتقد المرء أنه حسنة مأمور بها — فهو ضال جاهل ، وهذا عليه أن يتوب من هذا الاعتقاد والعمل الذي كان يعتقد أنه حسنة ، كما يتوب كل من الكفار وأهل الأهواء المشركين وأهل الكتاب ، والمبتدعة كالخوارج والروافض والقدرية والجهمية وغيرهم • فإن هؤلاء يتوبون مما كانوا يظنونهم حسنات ، لا يتوبون مما في الشريعة حسنات ، ولا يطلقون القول إنا نتوب من الحسنات ، ولا أن التوبة من الحسنات فعل المقربين ، ولا أن التوبة من الحسنات مشروع للسابقين ، ولا أن الذي تبنا منه كان حسنات • ولكن يقولون : نتوب مما كنا نظن أنه حسنات وليس بحسنات ، كما قيل :

إذا محاسنى اللاتى أدل بها
كانت ذنوبى فقل لى كيف أعذر

وكذلك يتوب المرء مما يعده حسنات له وهو مقصر في فعله •
أو خائف من تقصيره في فعله ، كما قال تعالى : « والذين يؤتون
ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون » (١) • وقد روى
عن عائشة أنها قالت : يا رسول الله : أهو الرجل يزنى ويسرق
ويشرب الخمر ويخاف ؟ فقال : « لا يابنت الصديق • ولكنه الرجل
يصوم ويصلّ ويتصدق ويخاف ألا يتقبل منه » (٢) •

وهذا لأن الله تعالى يقول في كتابه : « إنما يتقبل الله من
المتقين » (٣) ، أى من الذين يتقونه في العمل •

والتقوى في العمل بشيئين : أحدهما إخلاصه لله ، وهو أن
يريد به وجه الله لا يشرك بعبادة ربه أحداً • والثاني : أن يكون
مما أمره الله به وأحبه ، فيكون موافقاً للشريعة ، لا من الدين
الذى شرعه من لم يأذن الله له ، وهذا كما قال الفضل بن عياض
في قوله : « ليلوكم أيكم أحسن عملاً » (٤) قال : أخلصه وأصوبه •
وذلك أن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل ، وإذا

(١) سورة المؤمنون : ٦٠ •

(٢) رواه ابن ماجه في كتاب الزهد باب التقوى على العمل

حديث رقم ٤١٩٨ •

(٣) سورة المائدة : ٢٧ •

(٤) سورة هود : ٧ •

كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً •
والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة •

فالسعيد يخاف في أعماله ألا يكون صادقاً في إخلاصه الدين
لله • أو أن لا تكون موافقة لما أمر الله به على لسان رسوله • ولهذا
كان السلف يخافون النفاق على أنفسهم ، فذكر البخاري عن أبي
العالية قال : « أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ ، كلهم
يخاف النفاق على نفسه » (١) • ولهذا كانوا يستتنون فيقول
أحدهم : أنا مؤمن إن شاء الله ، ومثل هؤلاء يستغفرون الله مما
علموه أو لم يعلموه من التقصير والتعدي ويتوبون من ذلك •

وهذا مشروع للأنبياء والمؤمنين • كان النبي ﷺ يستغفر
بعد الصلاة ثلاثاً (٢) • وقال تعالى : « والمستغفرون بالأسحار » (٣) •
قالوا : كانوا يحيون الليل صلاة ثم يقعدون في السحر يستغفرون ،
فيختمون قيام الليل بالاستغفار وقال تعالى : « فاذا أفترضم
من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم
وإن كنتم من قبله لمن الضالين * ثم أفيضوا من حيث أفاض

(١) صحيح البخاري ، كتاب الإيمان ، باب خوف المؤمن من أن
يجبط عمله وهو لا يشعر •

(٢) رواه مسلم في كتاب المساجد باب استحباب للذكر بعد
الصلاة عن ثوبان رضي الله عنه •

(٣) سورة آل عمران : ١٧ •

الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم» (١) ، وقال تعالى :
« إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون في دين الله
أفواجا * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً » (٢) .

فإن قيل : قد قال تعالى : « وتوبوا الى الله جميعاً أيها
المؤمنون لعلكم تفلحون » (٣) ، ومن المؤمنين من لا ذنب له ،
فيكون أمره بالتوبة أمراً بالتوبة من الحسنات ، وكذلك توبة
الأنبياء وهم معصومون ؟

قيل : هذا من أعظم الفرية ، لم تأت الشريعة بالتوبة من
الحسنات ، وهي ما أمر به من طاعته وطاعة أنبيائه . وليس في
المؤمنين إلا من له ذنب من ترك مأمور أو فعل محذور ، كما قال
ﷺ : « كل بنى آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون » .

وقد قال تعالى : « والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم
المتقون . لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين . ليكفر
الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا
يعملون » (٤) .

(١) سورة البقرة : ١٩٨ ، ١٩٩ .

(٢) سورة النصر .

(٣) سورة النور : ٣١ .

(٤) سورة الزمر : ٣٣ - ٣٥ .

وقال تعالى : « أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون » (١) •

وأصل هذه المقالة ، وهو دعوى العصمة فى المؤمنين وما يشبه ذلك ، هو من أقوال الغالية من النصارى وغالية هذه الأمة ، وابتدعها فى الملتين منافقوها •

قال الله تعالى : « يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه » (٢) ، وقال تعالى : « يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل » (٣) ، وقال تعالى : « ما كان لبشر أن يؤتية الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون * ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيا أمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون » (٤) •

وقال تعالى : « وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى

(١) سورة الاحقاف : ١٦ •

(٢) سورة النساء : ١٧١ •

(٣) سورة المائدة : ٧٧ •

(٤) سورة آل عمران : ٧٩ ، ٨٠ •

المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون * اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون « (١) » .

وقد روى في حديث عدى بن حاتم عن النبي ﷺ قال : قلت يا رسول الله : ما عبدوهم . قال : أحلوا الحرام فأطاعوهم ، وحرّموا عليهم الحلال فأطاعوهم ، فتلك عبادتهم إياهم » .

وهذا الغلو الذى فى النصرى حتى اتخذوا المسيح وأمه إلهين من دون الله واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله — قد ذكروا أن أول من ابتدعه لهم بولص الذى كان يهودياً واتبع المسيح نفاقاً ليلبس على النصرى دينهم ، فأحدث لهم مقالات غالية ، وكثرت البدع فى النصرى : فى اعتقاداتهم وعباداتهم ، كما قال تعالى : « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فاتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون » (٢) .

وكذلك أول ما ابتدعت مقالة الغالية فى الاسلام من جهة بعض من كان قد دخل فى الاسلام وانتحل التشيع . وقيل : أول من

(١) سورة التوبة : ٣٠ ، ٣١ .

(٢) سورة الحديد : ٣٧ .

أظهر ذلك عبد الله بن سبأ الذي كان يهودياً فأسلم ، وكان ممن أقام الفتنة على عثمان ، ثم أظهر موالاة على . وهو من ابتدع الغلو في على ، حتى ظهر في زمانه من ادعى فيه الإلهية وسجدوا له لما خرج من باب مسجد كندة ، فأمر على رضي الله عنه بتحريقهم بالنار بعد أن أجلهم ثلاثة أيام . وفي الصحيح أن ابن عباس بلغه أن علياً حرق زنادقة فقال : لو كنت أنا لم أحرقهم لنهى النبي ﷺ أن يعذب بعذاب الله ، ولضربت رقابهم بالسيف ، لقول النبي ﷺ : « من بدل دينه فاقتلوه » (١) . قالوا : وهم هؤلاء ، وقد رووا قصتهم مستوفاة . ورووا أنه أظهر أيضاً سب أبي بكر وعمر حتى طلب على أن يقتله فهرب منه . ولما بلغ علياً أن أقواماً يفضلونه على أبي بكر وعمر قال : « لا أوتى بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته حد المفتري » تحقيقاً لما رواه البخاري في صحيحه عن محمد بن الحنفية أنه سأل أباه : من خير الناس بعد رسول الله ﷺ ؟ فقال : أبو بكر . قال : ثم من ؟ قال ثم عمر . وقد روى ذلك عن على من نحو ثمانين طريقاً ، وهو متواتر عنه . وروى هذا المعنى عنه من وجوه مرفوعاً الى النبي ﷺ ، كما رواه الترمذي ورواه الدارقطني في كتاب « ثناء الصحابة على القرابة وثناء القرابة على الصحابة » .

(١) رواه البخاري عن ابن عباس في كتاب استتابة المرتدين وباب حكم المرتد والمرتدة .

وحينئذ ابتدع القول بأن علياً إمام منصوح على إمامته ،
وابتدع أيضاً القول بأنه معصوم أعظم مما يعتقد المؤمنون في
عصمة الأنبياء ، بل ابتدع القول بنبوته ، وحدث بازاء هؤلاء من
اعتقد كفره وردته واستحل قتله على ذلك من الخوارج ، ومن
اعتقد فسقه أو ظلمه من الأمومية وبعض أهل الكلام من المعتزلة
وغيرهم ومن لم يعتقد إمامته ولا إمامة غيره في زمانه ، أو جعل
إمامته وإمامة غيره سواء مع اعتقاد فضله وسابقته • فهؤلاء الثلاثة
حدثت بازاء تلك الثلاثة : فالغالية والرافضة والمفضلة ، بازاء
المكفرة والفسقة والمتوقفة عن اختصاصه بالإمامة إذ ذاك •

ثم القائلون بأنه إمام منصوح عليه معصوم تفرقوا في
الإمامة بعده تفرقاً كثيراً مشهوراً في كتب المقالات ، منهم الاثنا
عشرية الذين يقولون بأن الإمامة انتقلت بالنص من واحد إلى واحد
إلى المنتظر محمد بن الحسن ، الذي يزعمون أنه دخل سرداب
سامراء سنة ستين ومائتين وهو طفل له سنتان أو ثلاث ، وأكثر ما
قيل خمس • ويزعمون مع ذلك أنه إمام معصوم ، يعلم كل شيء
من أمر الدين ، ويجب الإيمان به على كل أحد ، ولا يصح إيمان
أحد إلا بالإيمان به • ومع هذا فله اليوم أكثر من أربعمائة
وأربعين سنة لم يعرف له عين ولا أثر ، ولا سمع له أحد بما يعتمد
عليه من الخبر •

وأهل المعرفة بالنسب يقولون : إن الحسن بن علي العسكري

والده لم يكن له نسل ولا عقب ، واتفق العقلاء على أنه لم يدخل
السرداب أحد ، وأجمع أهل العلم بالشرعية على ما دل عليه الكتاب
والسنة أن هذا لو كان موجوداً لكان من أطفال المسلمين الذين
يجب الحجر عليهم في أنفسهم وأموالهم حتى يبلغ ويؤنس منه
الرشد : كما قال تعالى : « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح
فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً
وبداراً أن يكبروا » (١) •

وقد بسطنا القول في بيان فساد هذا في ذكر ما خاطبنا به
الشيعة قبل هذا ، ثم كتابنا الكبير المسمى بمنهاج أهل السنة
النبوية في نقض كلام الشيع والقدرية •

ومن الرافضة من يزعم أن الإمام بعد علي أو بعد الحسين
هو ابن علي محمد ابن الحنفية وهم الكيسانية ، ومنهم طوائف
كثيرة ليس هذا موضعها ، إذ ليس في نحل الأمة أكثر تفرقاً
واختلافاً منهم ، فإن أول من ابتدع مقالاتهم كان منافقاً زنديقاً ،
لم يكن مؤمناً ثم انتشرت في أقوام لم يعرفوا أخبار المسلمين
الأوائل ولم يقصدوا الزندقة •

والمقصود هنا أن هؤلاء هم أول من أظهر القول بأن في
المؤمنين من لا ذنب له كما قال هذا السائل ، وادعوا عصمة الأئمة

الاثنى عشر حتى عن الخطأ في الاجتهاد ، وعن نسيان العلم ، وعن عدم معرفة شيء من العلم ، فقالوا أنهم يعلمون كل شيء ، وادعوا عصمتهم من صغير الذنوب وكبيرها وغير ذلك ، وادعوا ذلك في الأنبياء أيضاً لأنهم أفضل من الأئمة •

ولم يقل هذا في الأمة غيرهم على هذا الوجه • لكن ظهر في صنفين من الأمة بعض بدعتهم : طائفة من التمسك والعباد يزعمون في بعض المشايخ أو فيمن يقولون أنه ولي الله أنه لا يذنب ، وربما عينوا بعض المشايخ وزعموا أنه لم يكن لأحدهم ذنب ، وربما قال بعضهم : النبي معصوم ، والولي محفوظ •

ومن غالبية هؤلاء من يعتقد في بعض المشايخ من الألوية والبنوة ما اعتقدته الغالية في على ، ويزعم أن الشيخ يخلق ويرزق ويدخل من يشاء الجنة ومن يشاء النار ، ويعبده ويدعوه كما يعبد الله ، ويقول كل رزق لا يرزقنيه الشيخ فلان فاني لا أريده ، ويذبح الذبائح باسمه ، ويصلى ويسجد إلى جهة قبره ويستغيث به في الحاجات كما يستغاث بالله تعالى •

فأما ضلال هذه الغالية فمترك واضح قد بيناه في غير هذا الموضع ، فإنه لا تجوز عباده أحد دون الله ، ولا التوكل عليه والاستعانة به ، ودعاؤه ومسألته كما يدعى الله ويسأل الله •

قال تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا • أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً) ^(١) • وقال تعالى : « قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير * ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له » ^(٢) • وقال تعالى : « من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه » ^(٣) • وقال تعالى : « أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون : قل لله الشفاعة جميعا له ملك السموات والأرض » ^(٤) • وقال تعالى : « فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين » ^(٥) • وقال تعالى : لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار » ^(٥) •

والمقصود هنا ذكر العصمة ، فقد أجمع جميع سلف المسلمين وأئمة الدين من جميع الطوائف أنه ليس بعد رسول الله ﷺ أحد

(١) سورة الاسراء : ٥٦ ، ٥٧ •

(٢) سورة سبأ : ٢٢ ، ٢٣ •

(٣) سورة البقرة : ٢٥٥ •

(٤) سورة الزمر : ٤٣ ، ٤٤ •

(٥) سورة الشعراء : ٢١٣ •

(٦) سورة المائدة : ٧٢ •

معصوم ولا محفوظ من الذنوب ولا من الخطايا ، بل من الناس من إذا أذنب استغفر وتاب ، وإذا أخطأ تبين له الحق فرجع إليه ، وليس هذا واجباً لأحد بعد رسول الله ﷺ ، بل يجوز أن يموت أفضل الناس بعد الأنبياء وله ذنب يغفره الله ، وقد خفى عليه من دقيق العلم ما لم يعرفه • ولهذا اتفقوا على أنه ما من الناس أحد إلا يؤخذ من قوله ويترك ، إلا رسول الله ﷺ •

وذهب بعض الناس إلى أن قول أبي بكر وحده حجة وإن خالفه عمر ، ثم قول عمر حجة وإن خالفه عثمان وعلى • أما أئمة الإسلام فلا يقولون بهذا ، بل تنازعوا فيما إذا اتفق أبو بكر وعمر على قول ، هل يكون حجة ؟ على قولين هما روايتان عن أحمد والأظهر في الموضعين أن ذلك حجة لقوله ﷺ : « اقتدوا بالذين من بعدي : أبي بكر وعمر » ، وقوله : « إن يطع القوم أبا بكر وعمر يرشدوا » ، وقوله : « لو اتفقتما على شيء لم أخالفكما » وقوله • « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة » ، وقد قال : « الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تصير ملكا » • وقد كانت خلافة على تمام الثلاثين مع الأشهر التي تولاها الحسن رضى الله عنه •

واتفقوا على أنه ليس من شرط ولى الله أن لا يكون له ذنب أصلاً ، بل أولياء الله تعالى هم الذين قال الله فيهم : « ألا إن

أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون « (١) •

ولا يفرجون عن التقوى بآتيان ذنب صغير لم يصروا عليه ،
ولا بآتيان ذنب كبير أو صغير إذا تابوا منه •

قال تعالى : « والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم
المتقون * لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين * ليكفر
الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي
كانوا يعملون » (٢) •

وقال تعالى : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم
سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما » (٣) •

وقال تعالى : « والله ما في السموات وما في الأرض ليجزى
الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى * الذين
يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة
هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون
أمهاتكم فلا تركوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » (٤) •

(١) سورة يونس : ٦٢ ، ٦٣ •

(٢) سورة الزمر : ٣٣ ، ٣٥ •

(٣) سورة النساء : ٣١ •

(٤) سورة النجم : ٣١ ، ٣٢ •

وقال تعالى : « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم * وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا اليه » (١) •

والفريق الثانى قوم من أهل الكلام من المعتزلة ومن اتبعهم ، زعموا أن الأنبياء عليهم السلام معصومون مما يتاب منه ، وأن أحداً منهم لم يتب عن ذنب ، أو حرفوا نصوص الكتاب والسنة ، كعادة أهل الأهواء فى تحريف الكلم عن مواضعه ، والإلحاد فى أسماء الله وآياته •

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها ومن اتبعهم على ما أخبر الله به فى كتابه ، وما ثبت عن رسوله ، من توبة الأنبياء عليهم السلام من الذنوب التى تابوا منها ، وهذه التوبة رفع الله بها درجاتهم فان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين • وعصمتهم هى من أن يقرروا على الذنوب والخطأ ، فان من سوى الأنبياء يجوز عليهم الذنب الخطأ من غير توبة ، والأنبياء عليهم السلام يستدرکهم الله فيتوب عليهم ويبين لهم ، كما قال تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا اذا تمنى ألقى

الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم * ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد » (١) •

وقد ذكر الله تعالى قصة آدم ونوح وداود وسليمان وموسى وغيرهم ، كما تلونا بعض ذلك فيما ذكرناه من توبة الأنبياء واستغفارهم ، كقوله : فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه (٢) •

وقول نوح : « رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين » (٣) •

وقول ابراهيم : « ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » (٤) •

وقوله : « والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين » (٥) •

وقوله سبحانه : « فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات » (٦) •

-
- (١) سورة الحج : ٥٢ ، ٥٣ .
 - (٢) سورة البقرة : ٣٧ .
 - (٣) سورة هود : ٤٧ .
 - (٤) سورة ابراهيم : ٤١ .
 - (٥) سورة الشعراء : ٨٢ .
 - (٦) سورة محمد : ١٩ .

وقال تعالى : « وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين * فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين » (١) •

وقال تعالى : « واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب * إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق » الى قوله « وظن داود إنما فتنناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأتاب * فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب » الى قوله : « ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب * قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب » الآية (٢) •

ولما كان اليهود ضد النصارى حيث قتلوا الأنبياء وكذبوهم • جحدوا نبوة داود ، وهم لنبوة سليمان أجحد ، وزعموا أنهما كانا حكيمين ، وأن داود كان مسيحياً ، وقد نزه الله سليمان مما تلتته الشياطين على ملكه مما اتبعه السحرة من الصائبة والمشركين ومن اتبعهم من أهل الكتاب والمنتسبين الى هذه الملة • والسامرة أعظم جحوداً ، لا يقرون إلا بنبوة موسى خاصة ، ويوشع بعده •

والله سبحانه قد هدى الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق

(١) سورة الانبياء : ٨٧ ، ٨٨ •

(٢) سورة ص : ١٧ — ٣٥ •

بأذنه ، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم ، كما اختلفت
الأمّتان في المسيح ، فقال تعالى : « ذلك عيسى بن مريم قول الحق
الذى فيه يمترون • ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه اذا
قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون » (١) •

وكذلك المنحرفون من هذه الأمة قد اختلفوا في على وغيره
كما تقدم ، فتجد أحدهم يغلو في الرجل العالم والعابد ، حتى
يعتقد عصمته ، أو يجعله كالأنبياء أو فوقهم ، أو يجعل لهم حظاً
في الإلهية • ونجد الآخر يقدر في ذلك ، فربما كفره أو فسقه أو
أخرجه عن أن يكون من أولياء الله الذين آمنوا وكانوا يتقون •
فالأول يجعل ما صدر منه من اجتهاد وعمل صواباً وإن كان خطأ
وذنباً ، والآخر يجعل صدور الذنب والخطأ منه مانعاً من ولايته
ووجوب موالاته •

وكلا القولين خطأ موروث عن أهل الكتابين • كما قال ﷺ
في الحديث المتفق عليه : « لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة
بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه • قالوا : اليهود
والنصارى قال : فمن ؟ ! » •

وقد ثبت في صحيح البخارى ﷺ أنه قال في أم القرآن

أنها أفضل سورة وأنه لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها ، وأنها السبع المتانى والقرآن العظيم الذى أعطيه النبى ﷺ حيث قال تعالى : « ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم » (١) •

وثبت في صحيح مسلم أن الله تعالى يقول : « قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، فنصفها لى ونصفها لعبدى ، ولعبدى ما سأل ، فاذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين ، قال الله : حمدنى عبدى • فاذا قال : الرحمن الرحيم ، قال : أثنى على عبدى • فاذا قال : مالك يوم الدين ، قال : مجدنى عبدى • فاذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين ، قال : هذه الآية بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل • فاذا قال اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، قال : فهؤلاء لعبدى ، ولعبدى ما سأل » (٢) •

وهذه البدع هى وغيرها من البدع لا بد أن تتنافى كمال الإيمان ، وتقدر فى بعض حقائقه ، فان رأس الاسلام شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله • فلا بد من إخلاص الدين لله ، حتى لا يكون فى القلب تأله لغير الله ، فمتى كان فى القلب تأله لغير الله فذاك شرك يقدر فى تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ،

(١) سورة الحجر : ٨٧ •

(٢) رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه مع خلاف فى اللفظ •

ولابد من الشهادة بأن محمداً رسول الله ، وذلك يتضمن تصديقه في كل ما أخبر ، وطاعته فيما أمر به ، ومن ذلك الإيمان بأنه خاتم النبيين وأنه لا نبي بعده ، فمضى جعل لغيره نصيباً من خصائص الرسالة والنبوة كان في ذلك نصيب من الإيمان بنبي بعده ، كالمؤمنين بنبوة مسيلمة والعنسي وغيرهما من المتنبئين الكذابين ، كما قال ﷺ : « إن بين يدي الساعة ثلاثين دجالين كذابين كلهم يزعم أنه رسول الله » .

فمن أوجب طاعة أحد غير رسول الله ﷺ في كل ما يأمر به ، وأوجب تصديقه في كل ما يخبر به ، وأثبت عصمته أو حفظه في كل ما يأمر به ويخبر من الدين — فقد جعل فيه من المكافأة لرسول الله والمضاهاة له في خصائص الرسالة بحسب ذلك ، سواء جعل ذلك المضاهي لرسول الله ﷺ بعض الصحابة أو بعض القرابة أو بعض الأئمة والمشايخ أو الأمراء من الملوك وغيرهم .

وقد قال الله تعالى في كتابه : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً » (١) .

فعاية المطاع باذن الله أن يكون من أولى الأمر الذين أمر الله بطاعتهم من العلماء والأمراء ومن يدخل في ذلك من المشايخ

والملوك وكل متبوع ، فان الله تعالى أمر بطاعتهم مع طاعة رسوله ، كما قال : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » فلم يقل : وأطيعوا أولى الأمر ، ليبين أن طاعتهم فيما كان طاعة للرسول أيضا ، إذ اندراج طاعة الرسول في طاعة الله أمر معلوم ، فلم يكن تكرير لفظ الطاعة فيه مؤذنا بالفرق ، بخلاف ما لو قيل : أطيعوا أولى الأمر منكم ، فانه قد يوهم طاعة كل منهما على حiale .

وقد ثبت عن النبي ﷺ في الصحيح أنه قال : « إنما الطاعة في المعروف » (١) ، وقال : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » (٢) . وقال : « على المرء المسلم الطاعة فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية ، فاذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » (٣) . ولهذا قال سبحانه بعد ذلك : « فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » (٤) فلم يأمر عند التنازع إلا بالرد الى الله والرسول دون الرد الى أولى الأمر ، ولهذا كان أولو الأمر اذا اجتمعوا لا يجتمعون على ضلالة ، فاذا تنازعوا فالرد الى كتاب الله وسنة رسوله لا الى غير ذلك من عالم أو أمير أو من يدخل في ذلك

(١) جزء من حديث متفق عليه عن علي رضي الله عنه .

(٢) أوردة التبريزي في المشكاة وقال الشيخ الألباني صحيح .

(٣) رواه البخاري عن ابن عمر .

(٤) سورة النساء : ٥٩ .

من المشايخ والملوك وغيرهم ، ولو كان غير الرسول معصوماً أو محفوظاً فيما يأمر به ويخير به لكان ممن يرد اليه مواقع النزاع ، أن يردوا ما تنازعوا فيه الى الإمام والقُدوة الذي يقلدونه •

ومعلوم أن علماء الطوائف ومقتصديهم لا يرون هذا الرد واجباً على الإطلاق ، لكن قد يفعلون ذلك لأنه لا طريق لهم الى معرفة الحق واتباعه إلا ذلك لعجزهم عما سوى ذلك ، فيكونون معذورين • وقد يفعلون ذلك اتباعاً لهواهم في محبتهم لذلك الشخص وبغضهم لنظرائه فيكونون غير معذورين ، ولكن من اعتقد من هؤلاء في متبوعه أنه معصوم ، أو أنه محفوظ عن الذنوب والخطأ في الاجتهاد ، فذلك مردود عليه بلا نزاع بين أهل العلم والإيمان •

ولهذا إنما يقول ذلك غلاة الطوائف الذين يغلب عليهم اتباع الظن وما تهوى الأنفس ، وقد غلب على أحدهم جهله وظلمه • وكما أن الغلو في غير الرسول ﷺ فيه قدح في منصب الرسول وما خصه الله به ، وهو أحد أصول الاسلام ، فكذلك الغلو في غير الله فيه قدح فيما يجب لله من الألوهية وفيما يستحقه من صفاته • فمن غلا في البشر أو غيرهم فجعلهم شركاء في الألوهية أو الربوبية فقد عدل بربه وأشرك به وجعل له نداً •

ومن زعم أن الله ذم أحداً من البشر أو عاقبه على ما فعله ، ولم يكن ذلك ذنباً ، فقد قدح فيما أخبر الله به وما وجب له من

من حكمته وعدله • فالجاهل يريد تنزيه الصحابة أو العلماء أو المشايخ من شيء لا يضرهم ولا يضرهم ثبوته فيقدح في الرسول أو في الله تعالى ، ويريد تنزيه الأنبياء عما لا يضرهم ثبوته ، بل هو رفع درجة لهم ، فيقدح في الربوبية • فتدبر هذا فإنه نافع • والقائلون بعصمة الأنبياء من التوبة من الذنوب ليس لهم حجة من كتاب الله وسنة رسوله ، ولا لهم إمام من سلف الأمة وأئمتها وإنما مبدأ قولهم من أهل الأهواء كالروافض والمعتزلة ، وحجتهم آراء ضعيفة من جنس قول الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم الذين قال الله فيهم : « ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد » (١) •

وعمدة من وافقهم من الفقهاء أن الاقتداء بالنبي ﷺ في أفعاله مشروع ، ولولا ذلك ما جاز الاقتداء به • وهذا وضعيف ، فإنه قد تقدم أنهم لا يقررون ، بل لابد من التوبة والبيان • والاقتداء إنما يكون بما استقر عليه الأمر ، فأما المنسوخ والمنهى عنه والمتوب منه فلا قدوة فيه بالاتفاق • فإذا كانت الأقوال المنسوخة لا قدوة فيها ، فالأفعال التي لم يقر عليها أولى بذلك • وأما مذهب السلف والأئمة وأهل السنة والجماعة القائلين بما دل عليه الكتاب والسنة من توبة الأنبياء من الذنوب ، فقد ذكرنا من آيات القرآن ما فيه دلالات على ذلك •

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه كان يدعو : « اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي ، واسرافي في أمري ، وما أنت أعلم به مني • اللهم اغفر لي جدي وهزلي ، وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي ، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به مني • أنت المتقدم وأنت المؤخر ، وأنت على كل شيء قدير » (١) •

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يقول في استفتاح الصلاة : « اللهم أنت الملك لا شريك لك ، أنت ربي وأنا عبدك ، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي ، فاغفر لي ذنوبي جميعا فانه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهدني لأحسن الأخلاق فانه لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرف عني سيئها فانه لا يصرف عني سيئها إلا أنت » قال : ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم : « اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به مني ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت » (٢) •

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : كان رسول الله ﷺ يسكت بين التكبير والقراءة إسكاته ، فقلت : بأبي وأمي يا رسول الله ، إسكاتك بين التكبير والقراءة ما تقول ؟ قال : « أقول : اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم

(١) رواه البخاري في كتاب الدعوات ، ومسلم في الذكر والدعاء .

(٢) رواه مسلم عن ابن أبي طالب رضي الله عنه في كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه .

نقنى من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، اللهم اغسل خطاياى بالماء والثلج والبرد » (١) .

وفى الصحيحين عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يكثُر أن يقول فى ركوعه وسجوده : « سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لى » يتأول القرآن (٢) .

وفى الصحيح أيضا عن أبى هريرة قال : كان رسول الله ﷺ يقول فى سجوده : « اللهم اغفر لى ذنبى كله ، دقه وجله ، وأوله وآخره ، وعلايته وسره ، وقليله وكثيره » (٣) .

وقد تقدم قوله فى الحديث الصحيح : « إنى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » (٤) وقوله : « يا أيها الناس توبوا الى ربكم فانى أتوب اليه فى اليوم مائة مرة » (٥) ، وقوله : « إنه ليغان على قلبى وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة » (٦) . وتقدم أيضا أنهم كانوا يعدون لرسول الله ﷺ فى المجلس الواحد يقول : « رب اغفر لى وتب على إنك أنت التواب »

(١) رواه البخارى فى الاذان ومسلم فى كتاب المساجد ومواضع الصلاة .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

(٣) رواه مسلم .

(٤) حديث رقم ٦٣٠٧ ج ١١ فتح البارى والترمذى رقم ٣٢٥٩

وابن ماجه رقم ٣٨١٦ .

(٥) رواه مسلم .

(٦) رواه مسلم وابو داود عن الأغر المزنى وليس له فى الكتب

الستة الا هذا الحديث .

الغفور « مائة مرة (١) •

وفي الصحيحين عن ابن عمر قال : كان رسول الله ﷺ اذا قفل من غزو أو حج أو عمرة يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات ، ثم يقول : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير • آيئون تائبون عابدون ، لربنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » (٢) •

وفي السنن عن علي أنه أتى بدابة ليركبها ، فلما وضع رجله في الركاب قال : « بسم الله » ، فلما استوى على ظهرها قال : « الحمد لله ، سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون » ثم قال : « الحمد لله — سبحانك إنى ظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » ثم ضحك ، فقيل : من أي شيء ضحكت يا أمير المؤمنين ؟ قال : رأيت رسول الله ﷺ صنع كما صنعت ثم ضحك ، فقلت : من أي شيء ضحكت يا رسول الله ؟ فقال : « إن ربك ليعجب من عبده اذا قال رب اغفر لي ذنوبي ، يقول : يعلم أن الذنوب لا يغفرها أحد غيري » (٣) •

تم بحمد الله وتوفيقه

(١) المسند طبعة المعارف رقم ٤٧٢٦ وأبو داود في الوتر

وابن ماجه في الأدب •

(٢) رواه البخارى في الدعوات ومسلم في كتاب الحج •

(٣) رواه الترمذى وقال : هذا حديث حسن صحيح •